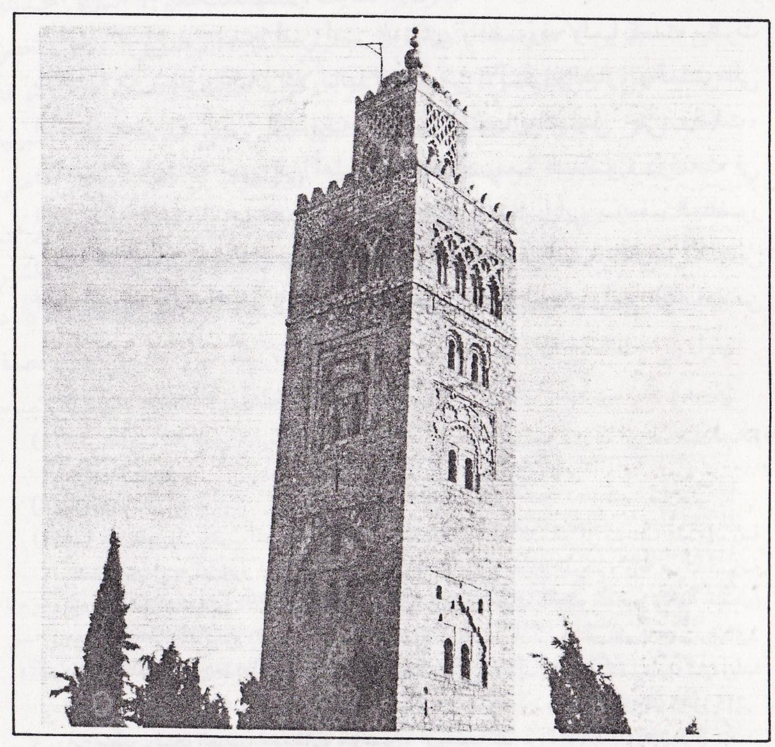
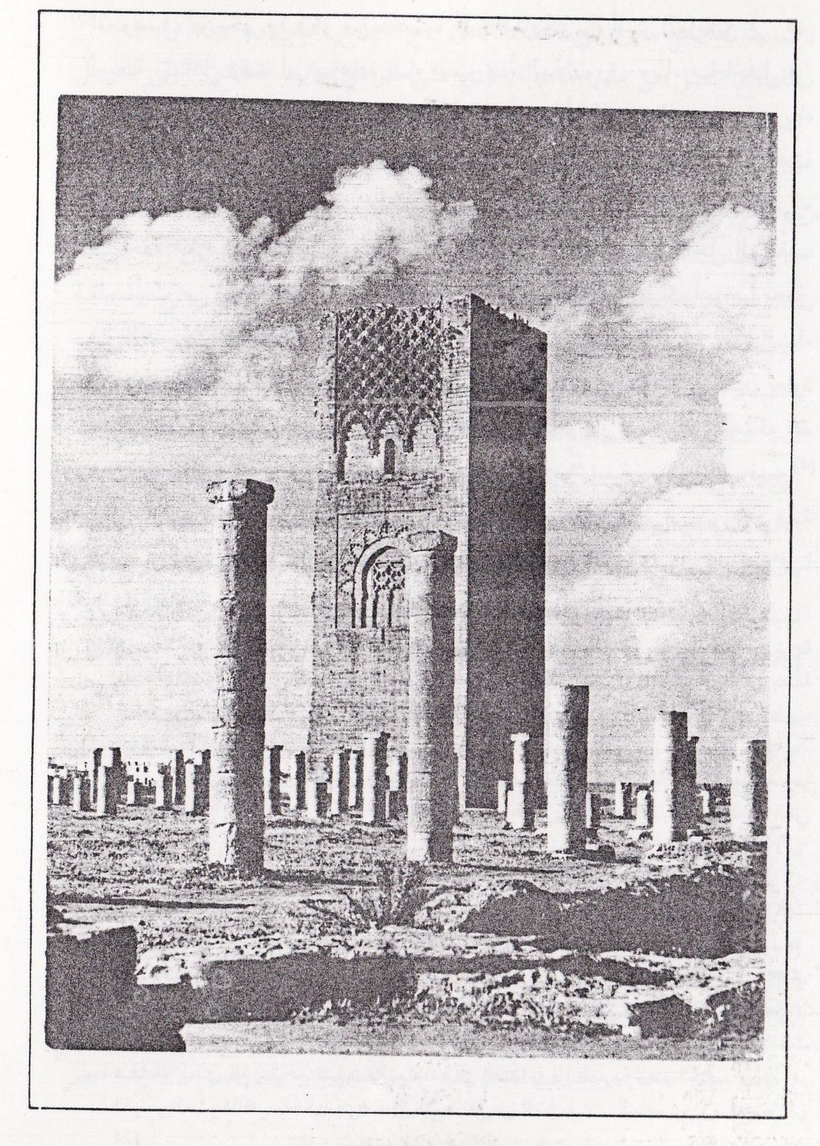
الناس، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر[1]، بموافقة التاسع عشر من مارس العجمي، من عام أربعة وتسعين وخمس مائة، ثم كشفت عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألّقها بالذهب الخالص الإبريز [340] وبشعاع ،،نقها، ويتدأخل الخبر مع الخبر.



جامع الكُتْبية بمدينة مراكش

ثالث ثلاثة من مساجد الموحدين الكبرى: بنوها شكراً لله على انتصارهم في وقعة الأرك

(1) آخر ربيع الآخر يوافق عاشر مارس 1198.



جامع حسان بالرباط

ذكر بنيان الأسواق حوالي الجامع المذكور وانتقالها من جانب جامع ابن عدبَّس اليه.

أمر أمير المؤمنين أبو يوسف رضي الله عنه بتوسعة رحاب للجامع حيث يصلي الناس ان احتاجوا إلى ذلك. فهدمت الديار والحوانيت والفنادق المضيقة عليه من السويقة المعروفة عند الناس باشبيلية بسويقة المسمار[1] قديماً، وابتدأ الهدم فيها يوم السبت السابع من ربيع الأول عام اثنين وتسعين وخمس مائة وأمر بتقدير قيم الدور المهدومة والرباع التي للناس فيها، فحضر المقدرون عن الأمر العالي من أهل اشبيلية لذلك، فمنهم من قدر بحسب ديانته وأمانته، ومنهم من قدر بشهواته، فأمضى الأمر تقديرهم، ودفع أمين المخزن عن الأمير القيم فيها لأصحابها على حسب ما ذكرته واتصل الهدم حتى إلى الروضات المتصلة بمسجد اليتيم[2]، فابتنيت الأسواق والحوانيت في المواضع المذكورة بأوثق البنيان، وأحسن نوع في ذلك الشان، عجيبة غريبة في الزمان، وجعل لها أربعة أبواب كبار تحوطها من جوانبها الأربع: أكبرها الباب القبلي والجوفي تقابلان باب الجامع الجوفي [341] منه، فلمّا كملت هذه الأسواق بحوانيتها بالبناء نقلت اليها سوق العطارين[3] وسوق التجار من البزازين وسوق المركطيين[4] والخياطين، وتزاحم الناس باعتباطهم في المزايدة في كرائها ونما الخراج في ذلك نمواً غالياً، واعتباطاً متمادياً. وعمر

(1) يترجمها ميلشور حرفياً هكذا: (plazuela del clavo).
(2) (مسجد اليتيم) ذُكر هذا المسجد ضمن ما يقرب من العشرين مسجداً كانت في أشبيلية.
(3) يترجم ميلشور العطارين ببائعي العطور مع أن الجاري عند المغاربة أن العطارين سوق لبائعي الأفاوه.
(4) سوق تباع فيه الثياب المستعملة، وأصل الكلمة باللاّتينية: Mercatellum وما يزال معروفاً بمدينة فاس سوق المركطال الذي رددته أيضاً الحوالات الوقفية لجامع القرويين وقد ورد في بعض المصادر بالنون في الآخر عوض اللام.

Provençal: journal asiatique avril — juin 1934 page 294.
Provençal: conference sur l'Espagne Musulmane caire 1951p. 105
Le tourneau: Fès Avant le Protectorat. page 250 — 274.

الجامع بالصلوات الخمس فيه لزاماً، واستبق الناس إليه ركعاً وسجداً وقياماً، فضخم شأنه، وعظم مكانه، ومر أمير المؤمنين على هذه الأسواق عند انفتاله من صلاة إحدى الجمعات فسر بما رآه من عمارته، وبدار الناس إلى طاعة الله وطاعته، وشكر الله تعالى وحمده، واغتبط بما بناه لله تعالى وخلده.

والخبر يذكر بالخبر[1]، وفي أثر هذا البناء في مصالح الجامع، واتصال المنافع، رفع إلى أمير المؤمنين الرجل الصالح المريد أبو العباس المري[2] أن جامع إشبيلية القديم جامع ابن عَدَبّس قد اختل واعتل من داخله وخارجه، وإن

وثيقة التأسيس لجامع عمر بن عَدَبّس:

يرحم الله عبد الرحمان بن الحكم الأمير العدل المهتدي.. الأمر ببنيان هذا المسجد على يد عمر بن عَدَبّس قاضي إشبيلية في سنة أربع عشرة ومائتين، وكتب عبد البر بن هرون.

جوائز المسقف منه قد عفنت أطرافها الثابتة على بلاطاته في الحيطان وإن حيطانه من جهة الغرب قد مالت ويخاف على الجامع الهدم، فأشفق لذلك رضي الله عنه، وأمر البنائين والفعلة من أهل الصناع في تلافيه، فحضر العرفاء له وأدخلوا تحت أطراف الجوايز ركائز وكعوباً من الخشب، وطبقوا عليها بألواح الخشب حتى قويت أصول الجوايز المذكورة، وبنوا له أبراجاً [342] من الحجر العادي من جهة حائطه الغربي، وقايةً له من الميل المرئي فيه من الاندفاع، وتكون له أنفع انتفاع، سطحوا صحنه بالآجر المحكوك الحسن الصنعة، وتابعوا أقواسه بالجبس والجيار، وكشفوا عن سقفه وبنوا ما وهى فيها حتى ظهر للعيان الصلاح في أحواله، وجميع أعماله، وكان هذا النظر الفاضل من أمير المؤمنين رضي الله عنه في شهر جمادى الأولى من عام اثنتين وتسعين وخمس مائة.

(1) يشعر بها ابن صاحب الصلاة ويعتذر كلما جذبته مناسبة للاستطراد.
(2) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الملك بن المطرف التميمي من أهالي المرية، توفي بسبتة في صفر سنة 627.
المعجب ص 291 ـ ابن الأبار التكملة (نشر ابن شنب) رقم 296 ص 296.
راجع التعليق رقم 2 ص 384.

رجع الخبر :

خبر غزوة امير المؤمنين بن أمير المؤمنين الغزوة الأولى[1] من غزواته بجزيرة الأندلس الى مدينة وبذة[2] في السنة المذكورة سنة سبع وستين وخمس مائة وفتحه في مسيره المعقل الاشب حصن بلج القشيري[3] وحصن الكرس[4] وتدويخه نظر اقليس[5] وسرته[6]، ومنازلته وبذة المذكورة على ترتيب المراحل والحلول في المنازل.

خرج[7] سيدنا أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه من حضرته

(1) تحدث عن هذه الحملة كثير من المؤرخين المسلمين كالمراكشي في المعجب، وابن عذاري في البيان، وابن خلدون في العبر والناصري نقلاً عنهما في الاستقصا، ولكن في شيء من الإيجاز، وقد تعرضت لها كذلك المصادر المسيحية التي كان منها كتاب الحوليات الطليطلية فيما نقله عنها كوديرا في كتابه «انحلال دولة المرابطين» ص 321، والمدونة التاريخية الأولى:
(Primera Cronica General) وكتاب لويس دي مارمول (Luis de Marmol) وكتاب ويسي ميراندا (Huici miranda) وقبله ميلشور أنطونيا، وإن الروايات العربية وإن كانت تختلف أحياناً عن الروايات المسيحية، ولكنها لا تتعارض معها كلَّ التعارض، بيد أن ابن صاحب الصلاة له القدح المعلى في وصف هذه الوقعة سيما وقد كان شاهد عيان.
المعجب نشر محمد الفاسي ص 152 ـ 153 ـ العبر: المجلد السادس ص 500 ـ الاستقصاء ثان 134 ـ 135.

Melchor Antona: campanas de los Almohades en Espana (Religion y Culturap. 1-60
Ambrosio Huici Miranda, Historia politica del imperio AL — Mohdade 1957 - I. p. 255 - 9.

(2) (Huete) وهو حصن قديم، سمّاه الرومان لما استولوا على اسبانيا Opta - Julia وقد حذف العرب صدر الكلمة، ويوجد في مقاطعة كونكة البرتغالية، وكان أول استيلاء المسيحيين عليه ـ بعد الفتح الإسلامي ـ في نحو سنة 472 (1080 م) عهد الفونسو السادس الذي فتحه قهراً ولم يكن في جملة القلاع التي يقول بعض المؤرخين إنها منحت للملك المسيحي مهراً عن الأميرة المسلمة زيدة، هذا واهتماماً بوبذة منحها الملك اسم مدينة الفونسو، وقد خلط بعض المؤرخين بين وبذة وابذة (Ubeda) ـ الحلل السندسية أول ص 404.

= Provençal: la mora Zaida Hesp TXVIII 1934 page 1-8.

اشبيلية غلس يوم الاثنين الحادي عشر من شوال، الموافق للخامس عشر[1] مايه العجمي من السّنة المؤرخة، وهي [343] سنة سبع وستين وخمس مائة. ووصل إلى قرطبة ودخلها يوْم الأحد السابع عشر من شوال المذكور أو نزل بمحلاته المؤيدة في جبل فحص السرادق[2] المطل على أبراج أرض الزاهرة[3]، وبات في ذلك المَوْضع ليلة الأثنين، ودخل في اليوم الثاني من وصوله إلى قصر قرطبة العتيق لما أمله من ترتيب أشغال الغزوة المباكرة وأقام فيها إلى ظهر يوم الاثنين الخامس والعشرون من شوال المذكور، وخرج في ذلك الحين مؤملاً جهاده، وقاصداً الله مراده، فبات على أميال من قرطبة،

= راجع التعليق رقم 3 ص 168 ورقم 1 ص 251 ـ محمد الفاسي ـ الأعلام الجغرافية الأندلسية ـ مجلة البينة عدد يوليه 1962 ص 19.

(3) يذكر دوزي في كتابه تاريخ المسلمين في إسبانيا إنه الحصن الذي يسمى الآن Velez Rubio بين بسطة ولورقة. ولكن ميلتشور يعتقد أنه الحصن الذي يحمل اليوم اسم (Viches) من أعمال جيان فهو الذي كان ينسب إلى بلج بن بشر القشيري.
أنظر ميلتشور ص 13 التعليق رقم 4.

(4) الكرس (Alcaraz).

(5) أقليس (Uclés).

(6) كذا ضبطها النَّاسخ، وهي كذلك في نزهة المشتاق، وقد أثبت الأمير شكيب ارسلان كترجمة لها: (Zarruta) بينما وجدتها في كتاب Huici: (Zorita).
الإدريسي ص 180 ـ الحلل السندسية أول 77 Huici ص 257 (تعليق) رقم 1.

(7) كان ذلك استجابة لاقتراح أصحاب هلال بن مردنيش لما وردوا مستسلمين. راجع ص 329 يعني من المتن.

(1) الموافق للحادي عشر من شوال السادس من شهر يونيه، لا الخامس عشر من مايه، ولم يفت الأستاذ Huici أن يصلح ابن صاحب الصلاة ـ Huici p. 256.

(2) فحص السرادق: سهل يقع في شرق قرطبة، وفي شمال نهر الوادي الكبير وكان مركز تجمع الجيوش الإسلامية في عهد الخلافة الأموية عند توجه حملاتهم إلى الشمال:
Provençal: l'Espagne musulmaneau xem siècle p. 141 — 225 — 234.

(3) هي المدينة المتصلة بقرطبة والتي بناها المنصور بن أبي عامر حاجب هشام بن الحكم.
الروض المعطار ص 80 ـ 81 ـ 82 ـ دائرة المعارف الإسلامية المجلد 3 ص 95.
Provençal: l'Espagne musulmane 230-231. ـ الحلل السندسية أول ص 300.

وسلك الطريق إلى القصَير[1]، إلى أندوجر[2] حتى وصل إلى مقربة من بياسة[3]، فتلقَّاه أبو اسحاق ابراهيم بن همشك وهو منصرف من حصار حصن بلج[4] العظيم الامتناع والشأن، الشاهق البنيان، وقد كان ابن مردنيش أعطاه للنصارى أهلكهم الله وكان السبب في إعطائه ابن مردنيش للنصارى الفتنة الواقعة بين ابن همشك وبين ابن مردنيش بسبب توحيد ابن همشك وطاعته للموحدين أيدهم الله، فأراد ابن مردنيش التضييق على ابن همشك بذلك، وعندما اجتمع ابن همشك بأمير المؤمنين حرَّضه على الحظور[5] على هذا الحصن وعلى حصاره، وأن الرأي الرحيل إليه في بقية اليوم الذي تلقاه فيه، فأمر سيدنا بالرحيل إليه في الحين. ووصل إليه عشية يوم الجمعة الخامس من خروجه من قرطبة، فعاين الناس من [344] منعة الحصن أكثر مما وصف، ونزل أمير المؤمنين بمحلاَّته على مقربة منه، وعاين الكفرة الذين كانوا فيه من كثرة أعداد المسلمين وعددهم ما هالهم، وقطع آمالهم، فلما كان صبيحة يوم السبت الموفي ثلاثين من شوال المذكور استعد الناس للقتال، ونظروا كيف يكون التوصُّل إلى ذلك المعقل بالطعن والنزال، فإذا بالأعداد الكفرة قد استدعوا أبا إسحاق ابراهيم بن همشك، ورغبوا منه أن يأخذ لهم الأمان من سيدنا في نفوسهم وما عندهم ويتركوا الحصن المذكور فوصل ابراهيم برغبتهم، وتوسط في طلبتهم، فرأى أمير المؤمنين رضي الله عنه ذلك رأياً

(1) القصير (Alcocer) يقع في الشمال الشرقي لأشبيلية، Huici page 256.

(2) راجع التعليق رقم 2 ص 197.

(3) بياسة (Baeza)، والظاهر أن الموحدين نزلوها، وإن كان ميلتشور لم يجزم بذلك، فإن ابن الخطيب في أعمال الأعلام ذكر أنها دخلت في طاعة ابن مردنيش سنة 544 ومعلوم أن هذا قد انتهى أمره، هذا وقد ذكر في الإحاطة أنه في سنة 553 كان في بياسة عالم غرناطي ويدعى عبد الله بن سهل كان يحضر دروسه جمع كبير من المسلمين والنصارى واليهود، وهناك يوسف البياسي الأندلسي (ت 653) الذي جمع بتونس سنة 646 كتاب الحماسة التونسية. أعمال الإعلام ص 261 ـ الإحاطة، مخطوط الأسكوريال رقم 1673 ورقة 222 عبد الكريم بن الحسني. الحماسة المغربية: ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية، 10 ـ 151 محمد الفاسي. الأعلام الجغرافية الأندلسية ص 24.

(4) راجع التعليق رقم 3 ص 399.

(5) كذا في الأصل والصواب حضور.

وفتحاً، وصنعاً جميلاً للمسلمين في أول حركتهم ونجحا، فنزلوا عن الحصن المذكور ضحوة يوم السبت المؤرخ، فلما كان بعد صلاة الظهر والفراغ من أداء فرضها ركب أميرَ المؤمنين بن أمير المؤمنين وطلع إلى الحصنْ المذكور وقد طهَّره الله من نجس الكفر، فأعجبه ما عاين فيه من المنعة الغريبة، وأمر في الحين بالنظر إليه في رجال من الموحدين يثقفونه ويمسكونه، وصرف أمره إلى أبي إسحاق بن همشك، وأقام يوم الأحد غرة ذي القعدة على معنى النظر للحصن المذكور. فلما كان يوم الاثنين من ذي القعدة رحل عنه قاصداً حصن الكرس[1] ليطهره أيضاً من [345] الكفر، إذ كان ابن مردنيش قد أعطاه للنصارى على حسب فعله بحصن بلج المذكور، فوصل إلى حصن الكرس[1] ضحوة يوم الجمعة السادس من ذي القعدة المذكور ونزل بعساكره المؤيدة قريباً منه، فعاين الناسُ منه حصناً مرتفعاً على بطاح كثير المنافع، كثير المياه لسَقْي المزارع، ينعطف حوله الوادي المسمى بوادي الأحمر[2]، فلما كان عشية اليوم المذكور رغب الكفار الذين كانوا فيه أن ينزلوا عنه على حَسب نزول اخوانهم ببلج المتقدم الذكر، فأجيبوا إلى ذلك ونزلوا منه عند صلاة المغرب من يوم الجمعة المؤرخ، وأمر أبو إسحاق بن همشك بالنظر في الحصن المذكور على حسب فعله فيما تقدم. فلما كان يوم السبت السابع من ذي القعدة رحل سيدنا أمير المؤمنين وقد أظهره الله وأظفره بالحصنين المذكورين، وسلك الجادة إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف[3] المتَّصل ببطاح مدينة جنحالة[4] في أول اللج[5] الفاصل بين بلاد المسلمين الآن[6]،

(1) راجع التعليق رقم 4 ص 399.

(2) لم نجد تعريفاً لهذا الوادي فيما بين أيدينا من مصادر، وكلُّ ما وقفت عليه أن هناك وادياً يدعى: Huici T. II page 455. Guadelhimar.

(3) بلاط الصوف (Balazote) ويقع غربي شاطبة.

(4) جنجالة (Chinchilla) وتقع شمالي الكرس تشتهر بصنع الزرابي.
الروض المعطار ص 67 ـ 70-257 — Huici page 256.
الفاسي: الأعلام الجغرافية الأندلسية 26.

(5) اللج قريب من جنجالة وفيه كان استشهد ابن هود سنه 540. أنظر الحلة السيراء ص 226.

(6) تحدث ابن صاحب الصلاة عن فتح حصن بلج وحصن الكرس ولكنه لم يعط إشارات كافية =

وبين بلاد النصارى أهلكهم الله، حتى وصل الموضع المعروف بالغدر[1] يوم السبت المذكور. وهذا الموضع هو رأس وادي آنة[2] الجاري إلى بطليوس وإلى ميرتلة[3] ونظر باجة، ونزل في بلاط صوف يوم الأحد وبات فيه وأقام فيه إلى الظهر من يوم الاثنين، وتزود الناس الماء من ذلك الموضع إلى مرج [346] البسيط المذكور، وأقام يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة فيه ووصل وادي جزيرة شوقر[4]، فشرب الناس منه ودوابهم ومواشيهم وارتووا منه وأراحوا فيه يوم الأربعاء بعده، ولما كان يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة رحل ونزل على وادي شُوقر بسبب الماء المذكور لشرب العساكر، وفي هذا المنزل بالوادي المذكور أمر أخاه السيد الأسنى أبا سعيد بن سيدنا الخليفة رضي الله عنه بالتقدم بعسكر ضخم من الموحدين ومن العرب والأجناد والرجالة والرماة، في نحو اثني عشر ألف فارس، ليغيروا على أول بلاد النصارى أهلكهم الله بجهة (وبذة) المذكورة، فتحرَّك على ما نفذ له الأمر العزيز أدامه الله، وأعد السير بقية يومه وأسرى ليلة الجمعة، وفي صحبته أبو العلاء بن عزون ناصح الدولة المهدية بجملته، وأبو اسحاق بن همشك بجملته أيضاً، فأصبح الله لهم بالصباح وقد أطلوا على أول عماير بلاد النصارى دمَّرهم الله بموضع بمرج خمل[5]، وفيه حصن ساكن بالنَّصارى ففتحوه في حين إطلالهم عليه،

= للأمكنة الباقية: أقليس وسرتة. . .

(1) الغدر Algodor ويقع غربي بلاط صوف.

(2) وادي آنة (Cuadiana) وهو أحد الأنهر الأربعة التي تصب في المحيط، ينبع من قلعة رباح ويصب في المحيط بقسطلة دراج، ويفيد ابن صاحب الصلاة هنا أن الغدر هو رأس وادي آنة. راجع التعليق رقم 3 ص 362.

(3) ميرتلة (Mértola) قال عنها ياقوت: إنها أحمى حصون المغرب وأمنعها من الأبنية القديمة على نهر آنا، وإليها ينسب الأديب الشاعر محمد بن مندلة المتوفي سنة 533. المعجم.

(4) راجع التعليق رقم 1 ص 318.

(5) (مرج خمل) وضع عليه ويسي علامة استفهام ويظهر لي أن خمل نعت لمرج أي مرج كثير الخمائل أي ذي شجر ملتف، على حد قول شوقي في دمشق:

خميلة الله وشَّتها يداه لكم فهل لها قيِّم منكم وجنانُ

ووصولهم إليه، وغزى جميع من كان فيه من الرجال وسبى نساؤهم وأبناؤهم، وهدم الحصن وأضحى قفراً يباباً، واتَّصل سير السيد والموحدين أنجدهم الله يوم الجمعة المذكور وأعلم حضرة أمير المؤمنين بما اتفق [347] من الإسراء والفتح. فلما كان يوم السبت وصل إلى وبذة مدينة الكفرة فتحها الله، فعبى عسكره تعبئة خامرت نفوس الكفار رعباً، فخرج الكفار إليهم بشرذمتهم وخيلهم ورجلهم، فكانت بين الموحدين وبينهم حرب عند عقر دارهم ومحل قرارهم أذلهم الله فيه، إلا أن بعض العرب ظهر منهم رواح وميل عند التصرف في الحرب فنفذ الأمر عليهم ذلك، وانفصلت الحرب عن ظهور الإسلام. وبات العسكر والسيد في موضع نزولهم بالجبل المطل على مدينة وبذة فتحها الله. واتصل سير سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين حتى وصلها يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة.

منازلة وبذة فتحها الله

ولما وصل[1] على مقربة منها أمر الموحدين والعرب وجميع القبائل بالتأهب للحرب، والترقب لهيئة الطعن والضرب، فانحاز كل قبيل إلى قبيلة، وتميز الناس على رتبهم وتقدمهم، وحضر الجميع، فأمروا بالمشي والصعود إلى الجبل المطل عليها، حيث نزل السيد أبو سعيد بعسكره، ليكون جمع العساكر واحداً، والأخذ للكفار قاصداً، فطلع الجميع على الترتيب المذكور بالرماح الطوال وغلايل الدروع والبيض [348] والدَّرَق والرايات والعلامات[2] على أتم السلام وأعم الصلاح. وسيدنا أمير المؤمنين في ساقتهم في كتيبته المنصورة معه أبناء الجماعة، وأبناء أهل خمسين وأهل الدار[3]. والعبيد

---

(1) يعني السيد أبا سعيد.

(2) هكذا يجمع العلم (العلام) في لغة المغاربة.

Colin Notes Espirés T. 10. 1930. page 106.

(3) نقل ابن القطان في نظم الجمان عن ابن صاحب الصلاة: «وكان له أي للمهدي رضي الله عنه رجال يخدمونه في داره يسمون أهل الدار من أصحابه يختصون به في ليله ونهاره وهم المعروفون =

أنجدهم الله وأعزهم، وخلفه السيد الأعلى أبو حفص أخوه وسائر السادات الأخوة، والرايات تتبعهم على عادتهم، ومن الطبول مائة طبل تضرب، وارتفعوا بجمعهم العظيم، ووفرهم العميم، في الجبل المذكور وكبّر المسلمون على المدينة بأصواتهم، رافعين أعلى ما يقدرون عليه بالتوحيد والتكبير والطبول مع ذلك تضرب، واتصل الحرب في ذلك الحين بين الكفرة والمسلمين، فغلبوا على ما كان لصق سورهم، وداخل ارباضهم ودورهم، وحرقت وهدمت، وكان هذا التبريز حافلا، ومنظر الكفار هائلاً، ونزل الموحدون أيدهم الله بأخبيتهم داخل جناتهم، وكرومهم المتصلة بمدينتهم، ومنعوا في الحين شرب الماء من واديهم، وقطعت عنهم حياتهم في ناديهم، ونزل سيدنا أمير المؤمنين في رأس الجبل المذكور وضربت له قبته الحمراء[1] وجميع العساكر حوله، ولما كان عشية اليوم يوم الثلاثاء السابع عشر المذكور جمع سيدنا أشياخ الموحدين أعزهم الله، وتذاكر معهم كيف يكون قتالهم في مدينتهم، فركب السيد الأعلى [349] أبو حفص ومعه اخوته وبنو الجماعة، وأشياخ الموحدين، وأشياخ أهل الأندلس أبو العلا بن عزون وأبو اسحق بن همشك، وتقدمهم السيد الأعلى أبو حفص في عسكر ضخم، وطاف بالمدينة من جميع جوانبها الأربع، وقسم الجهات منها على العساكر[2]، ومع كل عسكر سيد من الإخوة، فأمر السيد أبو سعيد أن يكون في جهة مع قبيل

= بأهل الدّار، أخصهم به عبد الواحد بن عمر، وأبو محمد وسنار بن محمد، وأبو محمد عبد العزيز وأبو موسى عيسى وعبد الكريم أفغو».
مخطوط يستعد لنشره محمود علي مكي. راجع التعليق رقم 5 ص 98.

(1) حرص الموحدون على استعمال القبة الحمراء في سائر المناسبات العظيمة وسنرى أنهم لم يتركوها أيضاً في غزوة شنترين. ولا شك أنه منهم تقليد لفعل الرسول عليه السلام فقد وَرَد أنه نصب القبة لاستقبال وفد ثقيف في السنة التاسعة من الهجرة وتشير بعض المصادر إلى أن القبة كانت من أدمٍ أحمر، هذا ولا يخفي ما في اللون الأحمر من البهجة ومن الرمز من للسلطة الدنيوية.
البيذق 102 ـ ابن عذاري ص 127 ـ السيرة الحلبية جزء ثان ص 338 ـ 339. ابن الحسني عبد الكريم: التعريف بقبة وفد ثقيف (مخطوط).

(2) يتألف الجند عند الموحدين من مرتزقة ويقيمون بمراكش وعموم وهم يدعون عند النفير العام. المعجب ص 341.

هنتانة، والسيد أبو زكرياء صاحب بجاية مع قبيل كومية، والسيد أبو علي الحسن مع غمارة، والسيد أبو اسحاق مع قبيل جدميوه، والسيد أبو ابراهيم مع قبيل جنفيسة، وكذلك أشياخ الموحدين أعزهم الله كل شيخ مع قبيلة في موضعه المرسوم له أن يقاتل منه ويدفع، والعرب بجميعهم في جانب متصل بالمدينة المذكورة. وكمل هذا التقسيم في تلك العشية على ما ذكرته. وكان النَّصارى دمَّرهم الله قد صنعوا حفيراً خارج ربض مدينتهم استعجلوا حفره في يومين، وصنعوا عليه زرباً من الخشب أضافوا إليه أبواب ديارهم وبيوتهم، وظنوا بسوء تدبيرهم أن ذلك الحفير والزرب يمنعهم من أمْر الله تعالى، فكان ذلك الحفير لهم قبراً، واستوصلوا فيه قتلاً وعقراً. وبات أمير المؤمنين ليلة الأربعاء الثاني عشر من ذي القعدة المذكور على النية الموصوفة، الخالصة بالجهاد لأعداء الله تعالى وبات الناس كذلك، فلما أصبح الله بصباح يوم الأربعاء المذكور وقضيت الفريضة وقرىء الحزب[1] [350] على حَسب العادة من السُّنَّة أخذ الناس في الاستعداد، والتأهب للجهاد، وركب سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، واستوى على صهوة فرسه الميمُون في جحفل جرَّار، كتائبه كالجبال إلا أنها سائرة! قد ملأ الملأ خَيْلاً ورجلا، وطبَّق الفضاء وعْراً وَسهْلاً، تخفق راياته أسنته، وترعد طبوله، وتتوقَّد نُصُوله، وتتجاوب بالصّهيل خيوله، وتضم أقطاره من مساعير الرجال، ومشاهير الأبطال، كل نزَّال، وحربيّ مِرْقال، قد لبسوا على ما تقدم لهم السوابغَ والأبدان، وتقلدوا الصفائح والقضبان، وتنكبوا القسي والمُرَّان، ومعه أخوه السيد الأعلى أبو حفص وأشياخ الموحدين، فاستدعى الفقيه الحافظ أبا بكر بن الجد، والفقيه أبا محمد المالقي والقاضي أبا موسى عيسى بن عمران والقاضي أبا محمد بن الصفار[2] والقاضي أبا الوليد بن رشد[3]، ومشى في ترتيب جحفله الجرار

(1) أنظر التعليق رقم 1 ص 164.

(2) ترجم ابن الأبار لأبي محمد عبد الله بن مغيث بن يونس بن محمد بن مغيث الأنصاري القرطبي المعروف بابن الصفار (516 — 576) وقال إنه أخذ عن جده وأبيه وعمه محمد وآخرين، وقد نقل التنبكي ترجمته في نيل الابتهاج عن الأبار. راجع ص 61.

(3) محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي الحفيد الطبيب الفقيه الفيلسوف (Averroes) غُنِي بكلام =

حتى وصل إلى مقربة من الحفير الذي صنع عليه الزرب المذكور، ونزل على ربوة من الأرض مرتفعة، وضربت له فيها قبة خباء جلس فيها مع مَن ذكرته، ووصلت العساكر على رتبها، وعلى ما أمروا به من التزام كل عسكر في موضعه، وقد قسمت السهام على الرُماة، وأحضرت بين يديه جميع الآلات. ووصل من أمِرَ مِن الأخوة والأشياخ للمبايعة فبايع [351] الجميع منهم، وأخذوا بيد أمير المؤمنين تقبيلاً وتسليماً، وتيمناً وتعظيماً، وثبوتاً على الجهاد نصيحة وعزيماً، ودعا لهم أمير المؤمنين وركبوا خيلهم، وقدموا رجلهم أمامهم، والتحم القتال والنزال، وقد أمرهم أمير المؤمنين أن لا يدفعوا على النصارى إلا عند ضرب الطبول وخفقها، وقد صفف منها مائة طبل، فعندما ضربت الطبول ودفعت العساكر صار النهار ليلاً، وحل بالكافرين ويلاً، انهزم في الحين جميعهم، وساء بهم صنيعهم. وقتلوا حتى إلى لصق سورهم، وفي داخل بيوتهم ودورهم، وكانت مدينتهم دون أبواب[1] ولا من يحميها، وبهتوا، ولم يبقَ على أسوارهم منهم كافر، واشتغلوا عن حمايتها بالتحصن في قصبتهم، ولم يبق من سورهم موضع فيه قتال إلا الركن من جهة الغرب[2]، قاتل فيه أبو العلاء بن عزون حتى عجز، ومشى إلى أمير المؤمنين وطلب منه العون، فلم يجاوبه لاشتغاله مع الطلبة[3] في المذاكرة. وهدمت بيعهم وأخذ

= أرسطو، وترجمه إلى العربية وزاد عليه زيادات كثيرة، وصنف نحو الخمسين كتاباً، هذا وإن حضوره في هذه الحملة جديد لم يكن معروفاً من ذي قبل لدى سائر المؤرخين، وقد توفي ابن رشد هذا في ربيع الأول سنة 595.

المعجب ص 242 ـ 243 ـ التكملة كوديرا رقم 853 Melchor: campanas p. 20.

(1) على نهج ما وصفه أصحاب ابن مردنيش. راجع صفحة 250.

(2) لم نستطع أن نعرف هل أن هذه الجهة كانت تحت مسؤولية هنتاتة، أو كومية أو جدميوه أوجنفسية أنظر ص 349.

(3) يخطىء بعض المستشرقين من الذين اتهموا ابن صاحب الصلاة بالتملق للموحدين والتزلف لهم، فأنت ترى كيف ينتقد على الخليفة موقفه من عدم الاستجابة لإشارة القائد ابن عزون، هذا ومعلوم أن المجلس الذي أخذ بلب الخليفة كان يتألف من شخصيات فذة، فعلاوة على أخيه أبي حفص يوجد أبو بكر بن الجد، وعبد الله المالقي وجده لام عيسى بن عمران والقاضي ابن الصفار والفيلسوف ابن رشد.

فيها تسعة نواقيس[1] قاتل عليها الكفرة حتى قتلوا عند كنائسهم، وأخلوا أسوارهم من كل جهة، وظهر الفتح ظهوراً غريباً بعدد المؤمنين، والاستيلاء في ذلك اليوم على الكافرين، لاكن عند ذلك كفّ الله أيدي المسلمين عن الغلبة على المدينة، ووصلوا إلى السور ووقفوا عنده [352] وقوف العاجز المقصر قد توركوا للراحة من الفضل والكسل، وبما فهموا أن المراد تعجيز الحال في ذلك النضال، وأما الرماة فرأيت الشيخ المقدم عليهم محمد بن تيفوت[2] يمنعهم من رمي النّصارى بالسهام فلم تقع الآلات ولا الرماح ولا الدروع السابغات ولا البيضات. حدثني أبو العلاء بن عزون قال لي: لما قاتلت النصارى في البرج الذي كان عمدة امتناعهم فيه بمدينة وبذة وأشرفتُ على الفتح والغلبة لهم، ولم أر أحداً من أهل الأجناد الأنجاد، ولا من الشيوخ والقواد من يعينني، مشيت بنفسي إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وهو جالس مع أخيه السيد الأعلى أبي حفص ومع طلبة الحضر يتكلم معهم في

(1) من حقنا أن نتساءل عن مصير هذه النواقيص التسعة التي حرص الخليفة أشد الحرص ـ كما سنرى ص 358 على حملها في صدر ما حمله؟
إن جامع القرويين بمدينة فاس ظل كعبة لكل الذين حكموا في المغرب، ولذلك فقد كانوا يتبارون في تأثيثها بكل أنواع المفاخر، وكان فيما نجده فيها إلى الآن ـ علاوة على الثريا الكبرى الموحدية ـ ستة نواقيس غنمها المسلمون في غزواتهم الأولى بالأندلس، وفيها ناقوس كبير يحمل إلى الآن جملة بالأحرف اللاَّتينية مؤداها: «على الروح الطيبة أن تزجي الشكر لله الذي أنقذها من الضلال» وتحكي كتب التاريخ أنه كان بها عشرة... وجميعها استحال ـ بعد الصنعة ـ إلى ثريات، لكنها مع هذا واضحة المعالم، فهل هذه النواقيس الموجودة في القرويين وردت كلها ـ أو بعضها على الأقل ـ من حصن وبذة؟ أن بعض المؤرخين يذكرون أن بعضها ألفي بجبل طارق حين افتتحه عبد الواحد المريني. لكنا ـ ونحن لم نعثر فيها على الجمل المنقوشة التي تحدثوا أنها توجد على نظامها ـ نرجح أن تكون هذه النواقيس وبْذِية جمَّل بها الموحدون جامع القرويين في نفس التاريخ الذي صنعوا فيه الثريا الكبرى بها وهو سنة ستمائة،
ابن القاضي، جذوة الاقتباس 42 ـ 43 ـ 46 ـ عبد الهادي التازي: الحروف المنقوشة بجامع القرويين (مجلة كلية الآداب المجلد 14 سنة 1960 ـ الاسكندرية) ص 66 ـ 68 ـ 69 ـ نفس المؤلف: أحد عشر قرناً في جامعة القرويين طبعة مدينة المحمدية 1960 ص 18 ـ 19 ـ 20.

(2) لم نقف على تعريف ما بقائد الرماة هذا، ولم يرد ذكره أكثر من هذه المرة في كتاب ابن صاحب الصلاة.

المسائل، فقلت يا سيدنا أمير المؤمنين «عسى عون فقد أشرفت على الفتح!» وإنما كنت طامعاً أن يركب فيراه الناس وجميع العساكر، فيدخلون المدينة في حينهم فلم يجاوبني، واشتغل عني بما كان فيه! ولا جاوبني السيد الأعلى أبو حفص فعلمت أن النية في الجهاد قد فسدت[1]! وإن الغزوة قد تنكدت! ورجعت يائساً من النصر، في غاية الهم والفكر! ودام القتال على انحلال، وضعف وملال، إلى بعد أذان الظهر وارتفع؛ وما نفع الجيش الكثير عديده ولا نجع، إذ كان في نحو مائة ألف بين فارس وراجل، وانصرف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وانصرف [353] الناس إلى أخبيتهم وقد فهم الحال من فهمها، وسر بالتعجيز فيها من دبرها وعملها، وأمر أمير المؤمنين ليلة الخميس التاسع عشر من ذي القعدة من تحرس[2] الكفرة عن شرب الماء، ويسمرهم ليلاً يخرجوا في تلك الأرجاء، فلما أصبح الله بصباح يوم الخميس المذكور، وقضيت صلاة الصبح دعى أشياخ الموحدين ومزاورهم[3] وأشياخ القواد من أهل الأندلس وتذوكر معهم فيما يصنعون، فكان رأي أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر والقبائل لعمل الزرع وسوقه واختزان العلف والقوت لحصار هذه المدينة. فخرج الناس لذلك ورتبت العساكر على جهات المدينة لحصارهم ومنعهم شرب الماء من الوادي، وفيه أمر أمير المؤمنين بعمل آلات من الخشب عن سلالم[4] وابراج لقتال الكفرة في جوانب مدينتهم. ووصل فيه علج من النصارى راغباً في الأمان عن اخوته، وينزلون عن المدينة ويملكونها للمسلمين، فصرف بغير جواب ولم يلتفت، ثم انصرف في عشية اليوم المذكور متكرراً بالرغبة في

(1) نؤكد ما قلناه سلفاً عن صراحة ابن صاحب الصلاة وإنه لا يتردد في النقد متى ما رأى ذلك ضرورياً راجع التعليق رقم 2 ص 406.

(2) كذا في الأصل والأصوب يحرس كما قال بعد (ويسمرهم).

(3) جمع مزوار وهو لفظ بربري ومعناه رئيس فرقة وقد كان المهدي جعل على كل عشرة من أصحابه نقيباً DOZY: sup TIP. 613 بروفنصال، أخبار المهدي تعليق ص 244 الحلل ص 89.

(4) جمع لسلم ويقال للمفرد في المغرب سلوم Colin Wotes de dialectologie arabe Hespes Fax I — 1930 Page I07.

الأمان فلم يجاوب[1] وبات الموحدون تلك الليلة على حذر وترتيب في منع الكفرة من الماء فلما كان في صبيحة يوم الجمعة الموفي عشرين من ذي القعدة المؤرخ هبَّت ريح عاصف اكفأت القدور وقطعت الأخبية وكدَّرت النفوس باذايتها والصدور، [354] وصنع لأمير المؤمنين حول قبته من الثمار زَرْب[2] يقيه من إذاية الريح، وصنع الناس كذلك حول أخبيتهم، وبات الناس في المحلة ليلة السبت الحادي والعشرين على حالهم ورخص السعر في تلك الليلة: الشعير مدان[3] ونصف بدرهم، والقمح خمسة أمداد بدرهم، وانصرف الموحدون بزاد وعلف. وفي يوم السبت المذكور سيق ستة أعلاج من النصارى وأحضروا بين يدي أمير المؤمنين واستنطقهم عن أخبار طاغيتهم لعنه الله فلم يخبروا بشيء فغزى منهم خمسة وأسلم واحد!

وصول الشيخ المرحوم أبي حفص الى المحلة المذكورة من مرسية بعسكر اهل الشرق، وفي صحبته ابو الحجاج يوسف بن مردنيش مع أهل اشبيلية واهل الثغر.

ولما قرب الشيخ المرحوم بمَن معه خرج إليه أمير المؤمنين وأخوه السيد الأعلى أبو حفص وجميع السادات الإخوة وأشياخ الموحدين أعزَّهم الله وأشياخ أجناد أهل الأندلس والطلبة أجمع في جَمْعٍ كبيرٍ والتقوا به في الفحص المتصل بمدينة وبذة في أوفر الهيئات، فلما قربوا نزلَ أمير المؤمنين عن فرسه واخوته كذلك، فلما رآهم الشيخُ أبو [355] حفص قد نزلوا نزل إليهم، والتقوا لقاءً مباركاً، ودام وقوفهم طويلاً في سلام وكلام، ثم دعا لهم أمير المؤمنين على حسب العادة وركب، وركبوا وانصرفوا إلى مضرب

(1) يظهر من النص أن الموحدين كانوا يعتمدون على نجاح الحصار لاقتحام المدينة عنوة لكن العاصفة أفسدت برنامجهم.

(2) يعني فيما يظهر أعدالاً وأكياساً من التمر نصبت حاجزاً بينه وبين إذاية الريح . . .

(3) راجع التعليق رقم 10 ص 352.

المحلة، وأمر أبو الحجاج بن مردنيش بالنزول بمحلة أهل الشرق بالجبل المجاور لويذة، والنصارى أهلكهم الله ينظرون من أعلى مدينتهم فزاد روعهم وجزعهم، وزاد الاشتداد عليهم في الحصار. وضاقت حالهم وطلبوا الأمان فلم يجاوبوا! ولما كان المساء من يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي القعدة عادت ريح عاصف أشد ممّا هبت قبل ذلك، مزقت أيضاً الأخبية أكثر من تمزيقها قبل، ثم جاءت بمطر وابل ورعد قاصف وبرق خافق، وذلك في شهر يونيه[1] العجمي من السنة المؤرخة في أشد ما يكون من الحر، فكان للنصارى أهلكهم الله سقي «وإملاء» شربوا منه وشربت مواشيهم[2]. فلما كان صبيحة يوم الاثنين عزم أمير المؤمنين على قتالهم في سورهم، وركب وركبت العساكر وكل من كان في المحلة. وترتبت القبائل والرجال. والرماة للقتال والنزال، فبدأ المطر والرعد والبرق وجَادت السماء بماء كأفواه القرب. ففزع الناس وتعجبوا. ورغبوا في التوبة من الله تعالى![3] وانقلبوا. ولم يبق ثوب على أحد إلا رجع ماء وأسلم الناسُ الأمر [356] لله الواحد الصمد. وعجزوا عن القتال على كثرة العدة والعدد، وانصرف أمير المؤمنين والناس أجمع وقد حملت الأرض سيلاً، ودام ذلك إلى الظهر من اليوم المذكور، ثم انقشعت السماء، وارتفع الماء، فلما صلى الظهر من ذلك اليوم أمر أمير المؤمنين بالركوب والعودة إلى قتال الكفرة على مثل ما كان، فركبت الناس واصطف كل قبيل في موضعه المرتب فيه، ودام القتال من صلاة الظهر إلى عشية اليوم المذكور، وانصرف الناس وباتوا ليلة الثلاثاء الرابع والعشرين على حالهم، فلما أصبح الله بالصباح لم يخرج أمير المؤمنين من منزله ولا رآه أحد من وزرائه وخواصه مفكراً شغل البال بما عاينه من عدم الاجتهاد، والعجز عن

(1) يوم الأحد الثاني والعشرين القعدة يوافق 16 من يوليه 1172.

(2) راجع الاستقصاء ص 135.

(3) تذكر المصادر المسيحية «أن مدينة وبذة أوشكت على السقوط في يد سلطان المغرب إذ كادَ أهلها يهلكون عطشاً حتى كان يوم القديسة خوستا (Santa — Justa) فأرسل الله من السماء مطراً غزيراً اقتلع خيام السلطان وهدم معسكره».

الجهاد! ولما كان ليلة الأربعاء الخامس والعشرون من الشهر كانت بالليل حركة مفزعة من خروج النَّصارى على الموضع الذي كان فيه قبيل هسكورة[1] يحرسونه، ففروا منه وأدبروا عنه، فأمر أمير المؤمنين عند الصباح بضربهم بالسياط وعقابهم، وبات الناس ليلة الخميس السادس والعشرين من ذي القعدة المؤرخ على حالهم من الحذر والترتيب، وعند الصباح أمروا بالخروج عن العلف من الشعير والزاد، وأن يخرج الثلث من كل قبيل، وتقدم عليهم الحافظ أبو محمد[2] عبد الله بن أبي [357] تفريجين، وأبو اسحاق ابراهيم بن همشك، فخرجوا وباتوا ليلة واحدة وانصرفوا خائبين دون علف ولا زاد، فاشتد السعر وكاد أن يعدم، ولمّا كان يوم الجمعة السابع والعشرين من ذي القعدة جمعَ الناس على كثرتهم ووفورهم من كل قبيل، وقام فيهم الشيخ الزاهد المرحوم أبو محمد عبد الواحد بن عمر خطيباً باللسان العربي تارة، وباللسان الغربي[3] أُخْرى يحرضهم على قتال النصارى، ويعرفهم بما أوجب الله عليهم من الجهاد، وقال في كلامه لهم باللسان الغربي: قد كنتم بمراكش تقولون: لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا الله عَزَّ وجل واجتهدنا، فلما حضرتم معهم قصَّرتم وجنبتم الله عزَّ وجلَّ ونكلتم وما نصحتم! ما أنتم بمؤمنين ولا بموحِّدين إن تسمعوا النواقيس تضرب وتعاونوا الكفر ولا تدفعوا المنكر، إن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم في حق الله تعالى من الجهاد، على كثرتكم من الأعداد، ثم ثَوَّبهم فقالوا: ثبنا! وفي هذا اليوم وجه عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي[4] إلى العلج ولد

(1) هسكورة تقع في السوس الأدنى جنوب تارودانت (المحمدية) القديمة، وقد ظلت في التشريفات الموحدية تحتل المرتبة الأولى ولكن الخليفة مع ذلك لم يتأخر عن عقابها. التازي: دعوة الحق، يوليه 1960 ص 91.

(2) أظن أن هذا هو الذي ذكر (ص 254) تحت كنية أبي عبد الله واسم محمد: ولا أدري لماذا يغير لفظ ابن صاحب الصلاة هنا فيعبر عن هذا الحافظ بعبد الله، ولعله خطأ مطبعي وربما كان Huici قصده أن يقول أبا عبد الله. Huici ص 260.

(3) يعني بالبربري. وقد يُعَبَّرُ عنها باللغة المرابطية.

(4) راجع التعليق رقم 1 ص 379.

مريق(1) ـ لعنه الله ـ الذي كانَ يملك مدينة وبذة، وقال له: كنت رغبت في الأمان فانزل على ما رغبت، واخرج أنت وجميع مَن في المدينة معك على ما طلبت! «فكان من جوابه أن قال: ليس عندي ثياب تصلح للباس [358] فألقى بها ملككم!!» ففهم منه الخداع، والجواب المضاع، وانصرف عنه، ولما كان بعد ذلك الوقت أعاد الرجوع إلى العلج المذكور وقال له: إنما جئتك لصحبة كانت بيني وبين أبيك، فأنا الذي أخرجته من سجن يحيى بن(2) غانية وأريد الآن أن أخرجك مما أنت فيه، فقَلِق ولدُ مَريق العلج من كلامه وردَّ عليه جواباً جافياً! ثم قال له: «لست أمشي معك فإن النصارى والأمير ادفونش الصغير(3) قد خاطبوني باجتماعهم(4) واحتشادهم ووصولهم إلي وليرفعوكم أو يُقَابِلُوكم!» «وانصرف ابْنُ سعيد عن غير ما مَشَى فيه وبهذا الخبر، وعرف بذلك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، فلما كان بعد صلاة العصر من هذا اليوم أمر أمير المؤمنين بحضور الشيوخ من كلّ صنف من الموحدين والأندلسيين والعرب، ودخلوا عنده في القبة الحمراء، وتكلموا معه بقية عشية اليوم المذكور فيما يصلح من الرأي لهذا الخبر الطارىء، وانفصلوا عنه عند صلاة المغرب، فلما كان بعد مضي جزء من الليل ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة

(1) يقصد به أحد أبناء ما نريك دي لارا (Manrique de Lara) الذي كان مربياً لملك قشتالة الفونسو الثامن والذي اغتاله فرنان رويث دي كاسترو، ونحن نعلم أن هناك قومساً من عائلة مريق كان يسمى: Pedro Manrique de Lara قام بفتح حصن الصفراء Zafara بأمر من الفونسو الثامن، ولعل بدرو هذا هو نفسه الذي يشير إليه ابن صاحب الصلاة. التازي تاريخ المغرب الديبلوماسي. Melchor — P. 33.

(2) كان يحيى هذا عميداً للمتونيين بدار ملكهم أشبيلية ثم حالف الموحدين بعد. المراكشي المعجب ص 267 — 273 — 275 — 276 أعمال الاعلام، ص 253 ـ 354.

(3) أذفونش الصغير EL REY chico هو الفونسو الثامن (Alfonso V111). راجع التعليقات رقم 3 ص 97 ورقم 5 ص 153 ورقم 3 ص 284 ورقم 2 ص 286 ورقم 7 ص 286 ورقم 1 ص 295 ورقم 3 ص 392.

(4) لقد نقلت بعض المصادر المسيحية أنَّ كاردينال روما كان في هذا الوقت بطليطلة ودعا الناس إلى جهاد المسلمين وتقاطر المحاربون من كل صوب لنجدة الوبْذيين...

Codera: Decadencia y desaparicion des los Almaravides En Espagne p 321.

المؤرخ أَمَرَ بحرق البرج المصنوع لقتال الكفَرة، وبحرق الآلات كلها المصنوعة مع البرج! وليس عند أحد من الناس خبر، وأَمِرَ في الحين أبو الأصبع بن حكم القبطلي(1) المقدم على الدوابّ أن يسوق دوابَّ في ذلك الوقت على ما تحصل النَّواقيس التي أخذت في الكنائس [359] وبات الناس بقية الليلة على روع وحذر وأقوالٍ مرجفة.

قلوع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه عن مدينة وبذة

ولما أصبح الصباح من يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة عام سبعة وستين المؤرخ تكلم بعض الناس بالرحيل أنه يكون في هذا اليوم، وضرب الطبل الكبير(2) اشعاراً للناس بذلك فكأن القيامة قد قامت! فمن رجل حائر لا يدري ما يصنع، وآخر حازم قد أخذ بما كان يسمع ويتوقع، وحين ما عاين النصارى حركة الناس وسمعوا الطبل وفهموا القلوع عنهم خرجوا في حينهم بخيلهم ورجلهم، ووصلوا إلى الوادي الذي كانوا قد منعوا الشرب منه من يوم حصارهم، وابتدأوا مع الناس بالقتال، واشعلت في البيوت والزروب النيران، وصار الناس في حرب وانزعاج إلى الرحيل، ولا أخ يسأل عن أخيه من حال الذهول، ووصل النصارى إلى السوق على قرب من المحلة، وقتلوا الضعفاء والمرضى، والتحم القتال بين النصارى وبين المسلمين، وأمر أمير المؤمنين لجميع العساكر بالوقوف حتى ترفع الأخبية فرفعت وتقدمت، وبقيت قبته واقفة [360] على حالها حتى رفع جميع الناس، والسيد الأعلى أبو حفص قد لبس درعه وهو راكب في قبيل أهل تينملل أنجدهم الله وأشياخ الموحدين مع قبائلهم وأشياخ أهل الأندلس مع أصحابهم، والعرب مع قبائلهم مستعدون في الجميع. ثم إن أمير المؤمنين أمر بقلع قبته الكريمة وهو راكب

(1) لم نقف على أثرٍ لهذا القائد ويظهر أن الأصلِ أبو الأصبغ بالغين.

(2) يحكي المؤرخون أن من بين الطبول واحداً هو أكبرها إذا ضربت فيه ثلاث ضربات علم إنه طبل الرحيل ويسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه!!

والعساكر معه، وأمر بضرب الطبول والحركة والناس على ترتيبهم، والنصارى يقربون ثم يهربون، وتقدمت الرايات على طريق قونكة(1) أعادها الله على رفق ووفق، ومشى ثلاثة أميال، ونزل بالناس في موضع الماء الجاري المتصل بجبل مدينة وبذة المذكورة على ثلاثة أميال منها، وكانت حركته في هذا القلوع بعد أن ترك إخوته السادات بجمع كثير من العساكر في الساقة على مدينة النصارى يدفعونهم من اتباع الضعفاء من المجاهدين والمرضى، وفي صحبتهم يوسف بن مردنيش وابراهيم بن همشك وأبو العلا بن عزون بعسكر الأجناد الأندلسيين، فكان بين الموحدين المذكورين وبين الكفرة دفاع، وحرب ونزاع، على وادي المدينة المذكورة قتل فيه من النصارى ستون علجاً وأسر منهم عشرة. وظهر المسلمون في ذلك اليوم بنصر الله لهم، ثم أنهم وصلوا إلى المحلة في عشية اليوم وعرفوا بما كان من غزوهم وجهادهم وبات [361] الجميع في موضع النزول على حذر، وحُسْن نظر، ولَمَّا أصبح الله يوم الاثنين عقب ذي القعدة رحل أمير المؤمنين بالمحلات من الماء المذكور رَحيلاً جزلا بترتيب العساكر والرجال والرماة في القدمة(2) والساقة ومشى بهم عشرة أميال ونزل بقرية كثيرة الزروع، خاوية الربوع، فامتلأت الأيدي من القمح والشعير، وعاثوا فيها وعفوا آثارها وثمارها، وأهل في تلك الليلة بهلال شهر ذي الحجة من العام المؤرخ، وبات الناس على خير عادة، ولما أصبح الله بيوم الثلاثاء غرة ذي الحجة رحل أمير المؤمنين من القرية المذمومة على الطريق الى مدينة قونكة على مثل الترتيب في اليوم المتقدم والطبول تضرب على كل شرف من الأرض، والعساكر قد ملأت ما بين الطول والعرض. حتى وصل الى وادي شُوقر على ميلين من قونكة المذكورة بالجبل الغربي منها، ونزل بالناس وخرجوا الى زروع النصارى بها بإباحة محمد بن مردنيش للنصارى أرض المسلمين وصلحه معهم بالجزية لهم منه، ولما كان بعد صلاة

(1) قونكة (Cuenca) مدينة تقع في الشمال الغربي من مدينة بلنسية بينهما 322 ك. م.

(2) كذا في الأصل والصواب المقدمة.

العصر من هذا اليوم ركب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وركب معه أخوه السيد الأعلى أبو حفص وجميع إخوته السادات ووزيره ادريس بن أبي إسحاق ووجوه الموحدين أعزهم الله والحافظ الفقيه، أبو بكر بن الجد وقاضيه عيسى بن عمران والفقيه أبو محمد المالقي [362] شيخ طلبة الحضر ووجوه الناس من الأجناد والعرب ومن كل صنف ووصلوا في صحبته إلى مدينة قونكة ليعاينها.

(وصف مدينة قونكة)

وكنت في جملة من حضر في هذا الركب العظيم. فمشى أمير المؤمنين حتى دخل المدينة المذكورة وقصبتها الشهيقة المنيعة الرفيعة المتصل علوّها بالجو، تدل على آثار من الغبطة بها عند ملوك الإسلام، واهتبالهم للاحتصان فيها بحوادث الأيام، وقد أحدق بها من جهة(1) الغرب وادي شوقر المذكور باجراف وحافات لا يُمكن منها الوصول، ومن شرقها وادٍ آخر على مثاله في المنعة لها، يصبان الماء في بحيرة عظيمة لشربهم وهي لصق السور، ويدخل إلى المدينة على قنطرة عظيمة، في جانبيها برجان عظيمان مانعان على الواديين في حكم المدينة المذكورة، ومن جهة الجوف من المدينة حفير قد حفر في الحجر الصلد في عمقه نحو قامتين، عليه ستارة منيعة، وفي الحفير أدراج قد حفرت تحت الأرض ينزل فيها إلى الوادي لشرب الماء ولطحين القوت في الأرحى التي على الوادي، ويرجع في الأدراج على أمن، وعلى الستارة التي على الحفير برج عظيم من بناء الأوائل، وفي أسفل الأدراج عند الماء في الوادي باب مصفح بالحديد متملك من القصبة المذكورة، وليس لهذه المدينة موضع يقاتل منه إلا من جهة الحفير المذكور. وفي هذه

(1) يعترف المؤرخون المسيحيون بأن أقدم وصف لمدينة قونكة هو الذي يورده ابن صاحب الصلاة هنا...
Melchor: Campanas de los Almohades en Espana. page 7.